لاحظ أبو غسان فتورا في مشاعر ولديه الشابين تجاهه.. فغسان ورامي أصبحا يأتيان كل صباح إلى غرفة أبيهما ويمدان يديهما قائلين : (المصروف يا أبي لو سمحت) بشكل روتيني رتيب.. يعطيهما المصروف فيشكرانه على عجل وينطلقان من البيت.

أراد أبو غسان أن يذكر ولديه بأن علاقته بهما ليست علاقة مصروف فحسب.. فعندما جاءا هذه المرة ومدا يديهما لقبض المصروف، قال لهما أبوهما بلهجة تنبض بالحب الصادق: (أحبكما يا ولديّ). كان أبو غسان يتمنى أن تلتقي عيناه بعيني ولديه وهو يقول هذه الكلمات فيقرأ فيهما البهجة والاعتزاز بما قال لهما.. كان يريد أي مؤشر على أن ولديه يحبانه لذاته، لا للمصروف الذي يأخذانه منه. لكن تجاوب الولدين كان مخيبا للآمال! هزّا رأسهيما قائلين في شرود ذهن: (ونحن كذلك)، أي نحن كذلك نحبك.. وبقيا مادَّيْن يديهما وأنظارهما مثبتة على جيب والدهما، ففيه المصروف!

صُدِم الأب وانقلبت ابتسامته ذبولا وأخرج يده من جيبه دون المحفظة.. انتبه الولدان لما حصل وأدركا عدم لباقتهما في التجاوب مع كلمات أبيهما الرقيقة.. قبضا يديهما وأنزلاها.. حاولا تدارك الموقف.. أما رامي فقال: (أبي أنا آسف.. طبعاً أنا أحبك.. أنت أبي الذي رعيتني وأنفقت عليّ ولا غنى لي عنك).. كان رامي يقول هذه الكلمات وذهنه في المصروف، يتوقع أن يمد والده يده في جيبه ويعطيه المصروف.. لكن الأب لم يفعل وبقي صامتا.

فقال رامي : (أبي، رجاء أنا أحتاج المصروف.. أعدك أن أكون أكثر لباقة لكن لا تحرمني من المصروف). لم يتجاوب الأب فتضايق رامي وخرج مغضبا من الغرفة.

وأما غسان، فقد هزَّ الموقف كيانه! هو يحب أباه بالفعل، لكن قلبه كان قد ذُهِل عن هذه المحبة بتعلقه بالمصروف في الفترة الماضية. ملامح الأب الذابلة العابسة أيقظت مشاعر غسان، فأدرك كم كان مقصراً في حق أبيه في الفترة الأخيرة.. أدرك أنه كان أنانياً لا يفكر كثيرا في شعور أبيه ولا يجتهد في إدخال البهجة إلى قلبه.. اغرورقت عينا غسان بدموع حارة وقال بصوت متهدج: (آسف يا أبي الحبيب.. لقد غفلت عنك كثيراً ! سامحني أرجوك.. الدنيا كلها لا تساوي ابتسامة منك).. قال هذه الكلمات وهو يقلّب عينيه الدامعتين في وجه أبيه باحثا عن أية بادرة انفراج لعبوسه.. لكن الأب بقي عابساً صامتاً وخرج من غرفته وجلس على الأريكة لا يتكلم.

لَحِقَه غسان وتحرك حول أبيه كالقط، فتارة يقبِّل يديه وتارة يقبِّل رأسه وتارة يمسك بيدي والده بين يديه ودموعه منهمرة على خديه وهو يقول: (سامحني يا أبي أرجوك.. أنا أحبك.. تعلم أني أحبك)..

تنازعت الأبَ مشاعرُ متباينة.. فهو لا يحب رؤية ولده كسيرا بهذا الشكل، لكنه ما زال مصدوما من جفاء ولديه في أول الأمر، كما أنه يريد مزيدا من الضمانات لصدق محبة غسان.. انسحب الأب وعاد إلى غرفته بصمت وأغلق الباب وراءه.

أحس غسان بالضياع، فلحقه وقال من وراء الباب منادياً: (أبي أرجوك.. لا أطيق الحياة دون رضاك.. لا أستطيع العيش وأنا أراك غضبان حزينا.. لقد أخطأت يا أبي لكني أحبك.. أحبك يا أبي.. أرجوك سامحني.. أرجوك ابتسم في وجهي.. أرجوك ضمني إلى صدرك).. وتعالى صوت بكاء غسان كطفل فزع تركته أمه في صحراء وتولّت عنه.

حينئذٍ انهار سدّ الجفاء في قلب الأب أمام دموع غسان.. فتح الباب ورفع ولده الذي كان جاثياً على ركبتيه وضمّه إلى صدره وجعل يمسح دموعه ويقبّل رأسه.. استمر بكاء غسان، لكنه الآن بكاء فرحة وحنينٍ أُشبعَ..

مــدَّ الأب يده في جيبه ليستـخرج مصروف غسان، لكن غسان أعاد المحفظة إلى جيب أبيه وقـال له وهو ملتصق بصدره: (دعنا الآن مـن المـصـروف.. أريــدك أنت يا أبي الحبيب.. ما دمت راضيا عني فالدنيا كلها تهون)..

ولله المثل الأعلى.. قـد يعلم الله تعالى من عـبـاده جفافاً في محبتهم له، وتعلقا بنعيم الدنيا الذي يمنحهم إيـاه.. هو تعالى يتودد إلى عباده ويحب منـهم أن يبادلوه الـود وداً.. فإذا رأى مـنـهم جـفـاءً وغفلة قـطـع عنهم نعمة من النعم ليهـزّ كيانـهـم ويـوقـظـهـم مــن غـفـلتهم لعلهم ينتبهون إلى حقيقة أن النعمة ألْـهَتهم عن المنعم..

أمّــا فقير المشاعر كـ "رامي"، فلا يفهم هذه الأبعاد، بل لا يــزال في غفلته قد سيـطر "المصروف" على تفكيره.. فيستغفر الله ويجتهد في الطاعات ليسترجع "المصروف".

ليست مصيـبـته في عـتـاب الله لـه، إنّـما مـصيـبته قطع "المصروف"! بلادةٌ في التفكير وقصور في النظـرة وفـقـر في المشاعر وأنانية في التعامل! لا يفكر إلا فيما يـأخـذه، ولا يرى من واجبه أن يعطي.

وأمّـا صـاحـب الحسِّ المـرهف والقلب الحي كـ "غسان"، فإنّ قطع "المـصــروف" يــزيل عن عينيه الغشاوة ليبصر

المصيبة الحقيقية، أنه قصر في حق الله تعالى وغفل عنه.. فكل ما يـسـيـطـر على كيانه هو كيف يسترضي الله تعالى ويبرهن له على أنـه يبادله الود وداً.. أما عودة "المصروف" فتصبح قضية ثانوية.. لأنه قد يعيش -ولو بصعوبة- دون المصروف، لكنه لا يطيق لحظةً مـن الضياع الذي سيعانيه إن فقد معيّة الله تعالى أو أحس بأن الله لا يحبه.

في الـنـهـايـة، قـد يـعـود "المصروف" للاثنين: ((كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا)). لكن الأول -فقيرَ الشعور- سيـخـرج من البلاء كما دخل فيه لم يستفد شيئاً.. ما دام يرى عودة "المصروف" غاية الآمال ومنتهى الطموحات. وأمّــا الثاني فــإن المحنة كانت أكبر منحة له، حيث أطلقت روحــه من قيد الغفلة لتدور في فلك محبة الله تعالى.. ((هل يستويان مثلاً)).

انظر إلى الابتـلاء بإيـجابـية، لا على أنـه عقوبة محضة، بل هو بشكل من الأشـكال تودد من الله! رأى مـنا غـفـلـةً عنه وجـفافاً في عاطفتنا تجاهه، فابتلى لنراجع أنفسنا،فنستحي، فنحب، ونتودد.. لله رب العالمين.

EyadQunaibi4
EYADQUNAIBI@
user/eyadqunaibi
www.al-furqan.org

الله يتودد إلينا بالبلاء!!

د. إياد قنيبي